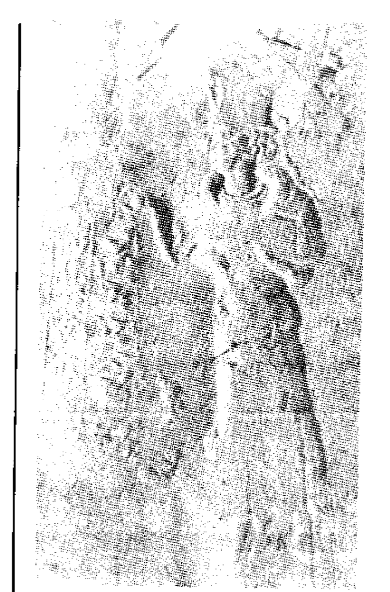


طبعة ختم اسطواني على جرّة فخارية. يتألف المنظر من شكل الآلهة عناة، والإله حدد وهما في حالة وهب الحياة لأحد الأمراء الإبلائيين حوالي (1750 - 1725) ق.م.

ـ الآلهة الكبار :

1 ـ دجن او (داغان) : لقد امتدت منطقة عبادة هذا الاله الكبير على مناطق واسعة من سورية. وكانت إبـــلا وماري وترقة (تل العشارة) وتوتول (تل البيعة قرب الرقة) من اقدم مراكز عبادته في الالف الثالث قبل الميلاد، كما شملت ايضا مناطق واسعة من بلاد الشام ومابين النهرين، وقد كان دجن (داغان) اله مدينة (توتول) مشهوراً جداً، الى درجة انه كان يبجل ويقدس في إبـــلا بصفته «ملك توتول»، ووجدت مناطق عبادة لهذا الاله في كثير من المواقع الاثرية وسمي معبداه في (ترقة) بـ«بيت راحة الموتى» و«بيت رعشة البرد».

وكان الاله دجن (داغان) في سورية بمثابة اله الغلال، ونلاحظ انه يوضع في لائحة الهة سورية جنباً الى جنب مع كبير الهة السومريين «انليل» وبصفته الاله الحاكم الذي كان يلقب بـ«ملك البلاد» و«سيد الالهة». اما زوجته فهي «شالاش» المساوية للالهة «ننليل» زوجة «انليل». وابن (دجن) هو اله الطقس والانواء «حدد» المعدود فيما عدا ذلك ابن اله السماء، وفي احدى المرات سميت ابنته «عشتار».

وفي النصف الثاني من الالف قبل الميلاد، كان (دجن) مساويا لاله الشعير الحوري «كوماربي» ـ ابي الالهة.

2 ـ الالهتان حيبات وعشتار : ان (حيبات) احدى الآلهات السوريات المقيمات التي قابلناها في إبـــلا، ويمكن ربط اسمها بـ(حدا) إلهة «الساقية». وقد اصبحت في النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد، (سيدة ارض الارز) في لبنان، وكذلك إلهة مدينة حلب وكوماني واماكن اخرى كثيرة، واصبحت فيما بعد زوجة الاله (تيشوب).

الا ان الزوجة الفعلية لإله الطقس، فهي ليست (حيبات) بل اخته، وهما في اوغاريت (رأس الشمرة) (بعل ـ عنات) وفي شمال بلاد الرافدين (حدد وعشتار) وعند الحوريين (تيشوب وشاوشكا)، اللذان يكونان زوجاً لصيقاً احدهما بالآخر. . .

وعشتار هي الالهة الشهيرة رمز الجنس والعواطف والحرب والاضطراب، وبصفتها الاقرب الى الذكورة كالهة حرب تظهر في السماء كنجمة الصباح وبصفتها الاقرب الى الانوثة تظهر كنجمة المساء، وكانت عبادتها في بلاد مابين النهرين وبلاد الشام اكثر شعبية من بقية الالهة الاخرى.

ونسجل لعشتار دورها في تعرف علماء الاثار على موقع إبـــلا في (تل مرديخ) عام 1968 حيث عثر على تمثال بازلتي نصفي مقطوع الرأس عليه الكتابة المسمارية التالية :

هذا الحوض تقدمه لمعبد الربة عشتار، من ابيت ليم بن اغريش حيبا، ملك من سلالة إبـــلا. . . في السنة الثامنة لعشتار.

ومنذ ان تألق نجم إبـــلا، ادخل ابيت ليم هذا التمثال الى المعبد، من اجل حياته، وحياة بنيه، وسرّت عشتار بهذه التقدمة سروراً كبيراً.



تمثال طيني آخر يمثل الإلهة عشتار في إبـــلا.

3 ـ الإلهة اشخارا : تفيدنا ترجمات الرقم المسمارية، ان اشخارا كانت الهة سورية قديمة، وقد قابلناها في مجموعة الالهة في امبراطورية إبـــلا، حيث كانت طبيعتها مشابهة لطبيعة (عشتار) وبصفتها الالهة العليا في منطقة شمال سورية، فقد سميت في الاتفاق المصري الحثي بين رمسيس الثاني، وهاتوشيلي الثالث بـ«اشخار سيدة الجبال والانهار في ارض الحثيين».

كان رمزها في العصر البابلي القديم، الافعى الاولى باشمو، وهناك مثلاً قسم كان يقدم باسم «افعى باشمو اشخارا» وبعد ذلك اصبح العقرب رمزها الحيواني[7].

4 ـ كورا وككّاب : وكان لهما دورهما الخاص والمهم في إبـــلا، حيث كانا يقومان بدور الشهادة على المعاهدات الدولية التي تعقدها إبـــلا مع المدن الاخرى، والشهادة كانت تعني، تنفيذ شروط المعاهدة.

5 ـ الاله دامو : يعتبر الاله دامو من اشهر الآلهة التي عني بها عامة الشعب، وقدموا لها القرابين الكثيرة، ونتيجة لحبهم له واهتمامهم به، فقد كان اسمه منتشراً بكثرة مع أسماء الناس، وذلك تبركاً به، وكانت تدور حوله، وحول دموزي (تموز) والالهة (غولا) الكثير من القصص ذات الصلة بالعالم السفلي.

7 ـ الاثار السورية، مصدر سابق (346 - 349).

. ترانيم واساطير :

لقد كشفت لنا ترجمات الرقم المسمارية الابلائية على بعض الاناشيد والترانيم والاساطير، وهذه النصوص لايمكن ـ حتى الان ـ القطع بشأنها، لان اكثرها لم يدرس بعد الدراسة الدقيقة الوافية. ولان الكثير منها مترجم عن اعمال سومرية اصلاً . . . لذلك لايمكن تقييمها قبل ان تدرس دراسة مقارنة دقيقة، وعلى سبيل المثال : هناك اسطورة بطلاها اصلا إلهان من الآلهة السومرية هما (انليل) و(وانكي)، وقد وجد علماء الاثار انه يصعب في المرحلة التي نحن فيها من دراسة الرقم المسمارية، يقال بان محتوى الاسطورة هو إبـــلائي تماما، او حتى الى اي درجة هو ابلائي جزئياً.

ترجمات الرقم كشفت لنا ـ حتى الان ـ نحو عشرين اسطورة، بعضها وجد في اكثر من نسخة واحدة، وهذه تلقي ضوءا جديدا على الالف الثالث قبل الميلاد. . . . والالهة التي تتحرك خلال هذه الاساطير هي الالهة السومرية الكبيرة مثل : انليل وانكي واوتو وانانا. . . .

والسؤال الذي يطرح حول دور هذه الالهة من حيث طبيعتها، هل ظلت سومرية ام اصبحت إبـــلائية ؟! والى اي حد ؟!

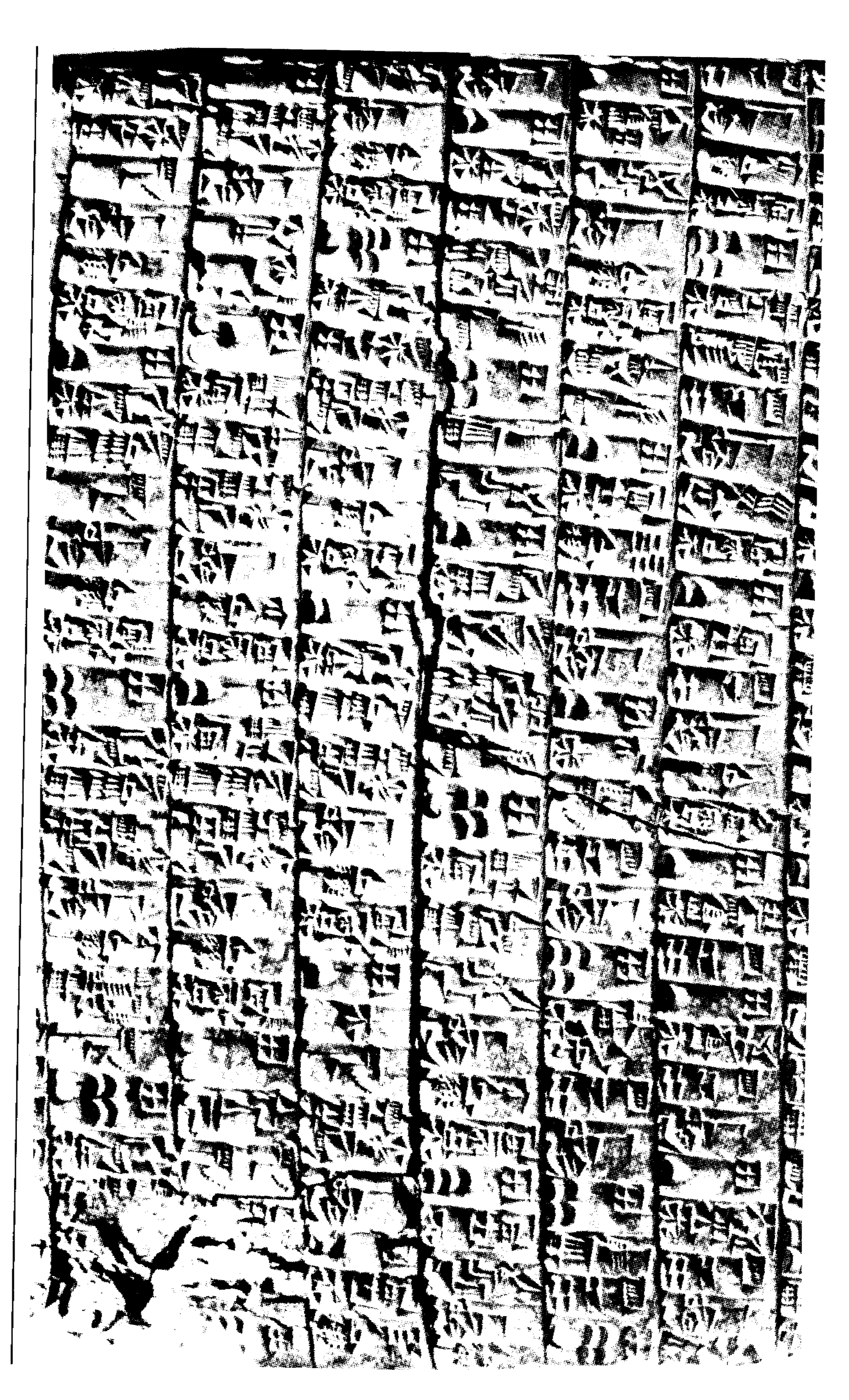
تحتوي هذه النصوص على ملاحم تروي قصصاً متنوعة، وعلى اناشيد للالهة، ومن الاولى مثلاً : عثر على نسختين لملحمة «جلجامش» وهناك مايشبه انشودة الخلق، وهي ابتهال لسيد الارض والسموات، وفيها شيء من التقدم عن الوثنية التعددية التي عرفت في تلك الازمنة :

رب السموات والارضين :\
ـ ان الارض لم تكن (موجودة) وانت خلقتها.\
ان نور النهار لم يكن (موجودا) وانت خلقته،\
لم يكن نور الصباح قد امرت بخلقه بعد،\
ايها الرب (انت) الكلمة الفاعلة. . .\
ايها الرب (انت) الرخاء. . . .\
ايها الرب (انت) البطولة. . .\
ايها الرب. . . .\
ايها الرب (انت) الذي لاتملّ. . . .\
ايها الرب (انت) الالوهية. . . .\
ايها الرب (انت) الذي ينجي. . .\
ايها الرب (انت) الحياة السعيدة الابدية [8].

لقد اثار هذا النص الابتهالي المتقدم الكثير من الاهتمام من قبل علماء الاثار واللغات القديمة، وخاصة عندما حاول «جيوفاني بتيناتو» الادعاء بوجود علاقة بينه وبين ملحمة الخلق في سفر التكوين، وقد رد عليه العالم الكبير الفونسو آركي بالقول ان جو النص يدور في كواليس سومرية، ومن الصعوبة بمكان عقد الشبه بينه وبين سفر التكوين، كما يدعي بتيناتو[9].

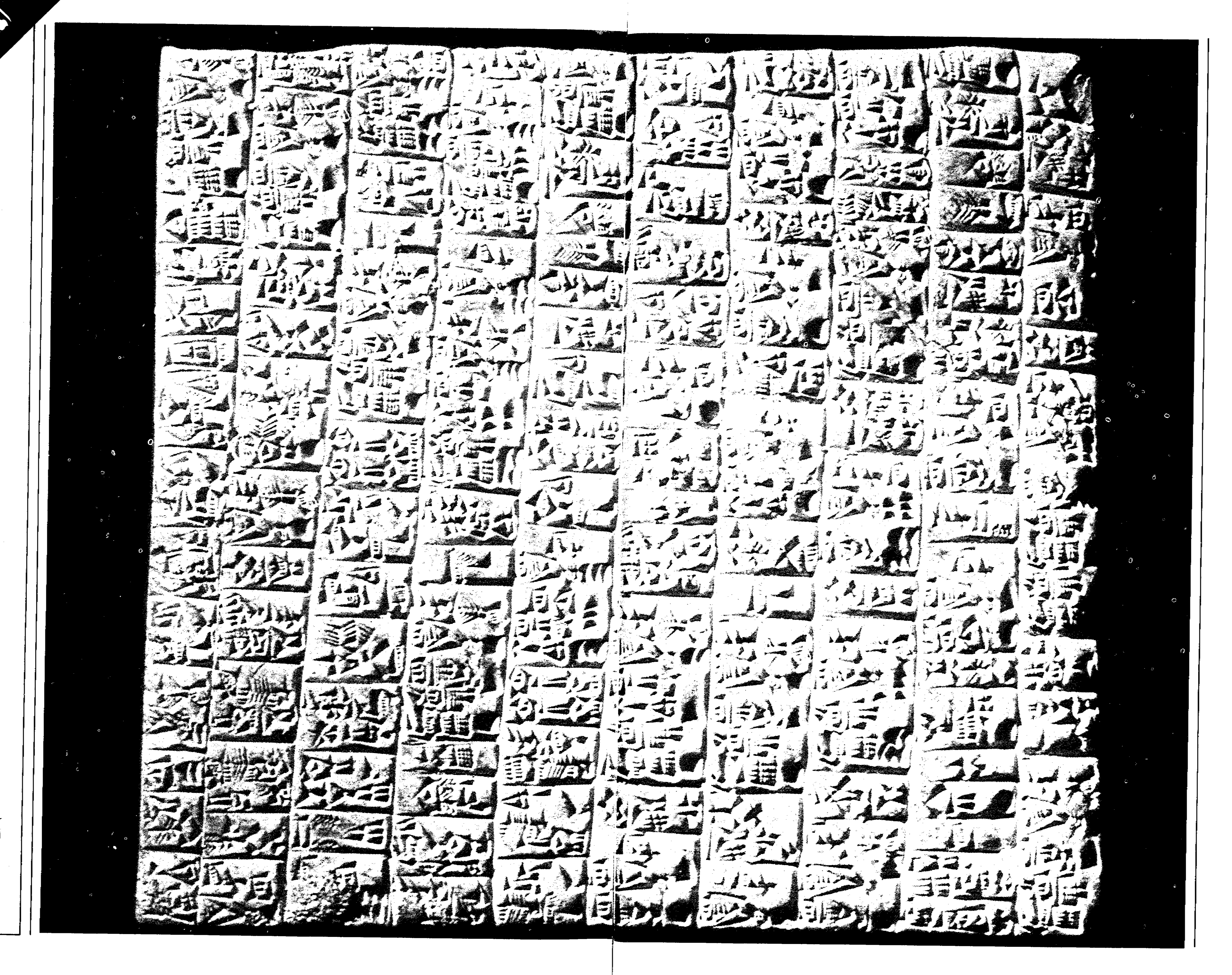
8 ـ انظر : G. PEHINTO : THE ARCHIVES OFEbLA, p. 95.

9 ـ الشواهد الكتابية في إبـــلا والتوراة، الفونسو آركي، مجلة بيليكا، العدد (60) ترجمة الاستاذ قاسم طوير، نشرت في كتابة إبـــلا، الصخرة البيضاء (ص 69).



رقيم مسماري من إبـــلا يتضمن قائمة بالهبات الشهرية التي تقدم من القصر لآلهة المدينة.

آداب إبـــلائية



من ارشيف إبـــلا .

6

آداب إبلائية

الحديث عن الأدب الابلائي ، باعتقادي ، لايزال سابقاً لأوانه ، لأن أكثر الرقم المسمارية المكتشفة لم تترجم ، ولم يعرف محتواها . . كما أن النصوص الأدبية المصنفة لا يزيد عددها عن خمسة وعشرين نصاً ، مازالت الآراء متضاربة حول تفسيراتها وترجماتها ، وكان أول من درسها «ادزارد» عام 1984 في دراسته (الارشيف الحقيقي لابلا Testi V) وهناك لمحات بسيطة عرضها الفونسوآركي من محتويات هذه النصوص .

في البداية نقول ان الكثير مما يسمى (الأدب) وصلنا من مواقعنا الأثرية ، مثل الأساطير والحكم وغيرها . . . . كان يتناقل بالرواية الشفوية ، والواقع ان بعض تلك الآداب والاساطير التي وصلتنا ، مثل ملحمة «جلجامش» قد مرّت في عملية تطور معقدة ، تمت خلالها على الدوام ، قبل ان تكتب في صيغتها النهائية ، وربما كانوا يقومون بالرواية الشفوية . . . .

من يتتبع نصوص الأدب القديم ، الذي اكتشفت نصوصه في إبـــلا وماري وأوغاريت وغيرها ، يجد بجلاء ، ان أكثر جوانبه ، إن لم يكن كله ، ممتلىء بالجوانب الدينية ، ومطبوع بطابع الايمان والهيمنة الدينية الواضحة ، وسبب ذلك يعود إلى أن العديد مما اكتشف من هذه النصوص مصدرة أرشيفات كان يشرف عليها موظفو المعابد ، وهذا لا يمنع من وجود بعض النصوص الادبية التي تتعلق مواضيعها بالأمور الدينية ، وخاصة ما يسمى بنصوص الحكم التي تربط الفولكلور والأمثال والنصائح السياسية ، ونصائح الزواج وغيرها بعضها ببعض . . إلا أننا لا نعرف ـ حتى الآن ـ إلا القليل من أدب الحكمة السوري القديم ، مع أن بعضه متضمن أحياناً في الاساطير والخرافات[1] .

1 ـ الآثار السورية ، أصدار مؤسسة البريد الدولي للنشر فيينا ، (ص 352) .

• أنشودة النجوم :

تعد هذه الانشودة «القصيدة» التي اكتشفت في القصر الملكي (G) في إبـــلا ، أكمل وأجمل النصوص الأدبية التي وصلت إلينا ـ حتى الآن ـ من الأدب الابلائي . . . . وتعد برأي العلماء أقدم قصيدة عرفتها الانسانية ، نظمها شاعر إبــلائي ، لا نعرف اسمه ـ منذ ما يزيد عن أربعة وأربعين قرناً !؟! وربما تكون أقدم من هذا العصر بكثير ، إذ انها قد تكون متناقلة من جيل إلى جيل ، حتى تم تدوينها في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد .



لقد قام بترجمة الانشودة «القصيدة» العالم اللغوي «إدزارد» ونشرها في (ARET V) عام 1984 ، غير أنه اكتفى بإيراد اللفظ دون دراسة القصيدة ، دراسة أدبية أو لغوية كافية ، وقد قام الزميل حميدو حمادة ، الاختصاصي بقراءة الرقم المسمارية بمتحف حلب ، بتبيان صلتها بالأدب والنحو العربي[2] .

تبدأ الانشودة الابلائية بالعبارات التالية :

«اصمد خبخبي ،
اصمد لسانم ،
اصمد دخر سينم ،
اصمدك على ابنيم صلميم ،
علْ زيدان أمان ،
أصمدك علْ زنبات شمش
لابنُم يلبّن ، لبتّم
علْ بابي إنليل أبي إيلي
وَكَبْكَب»

بهذه العبارات ابتدأ الشاعر انشودته ، وفيها نجد بأن الشاعر قد نذر نفسه ، أن يضع أمام محبوبته كل خوافي نفسه ومشاعره . . . كل تعابيره الشعرية ، وكل ماادخره من قوت لأيام شدّته . . . .

إنه سينحت «تمثالا» من الصخر الاسود ، وسيضعه في مكان مرتفع ، وسينقش اسمه على فؤوس المحاربين ، وسيكتب على بابي الإله انليل عبارات التمجيد ، وعلى أزيال الشمس ، سيذكر هذا المحبوب !! سيقدم الأضاحي والقرابين . . . سبعة رجال ، وسبع إماء في أول كل شهر . . . وسيطلي بالبياض أبواب المدينة ، ولبنات الأسوار ، ولن ينغص محبوبه !! . .

كلمات شعرية وصور أدبية تحمل كل مواصفات الشعر ، وتحتوي على قافية تتنوع كل عدة مقاطع ، والُ مضمونة في المقطع الأول ، وكاف مفتوحة في المقطع الثاني ، وقفل يتكرر كل عدّة اسطر .

ان الافعال التي وردت في النص هي :

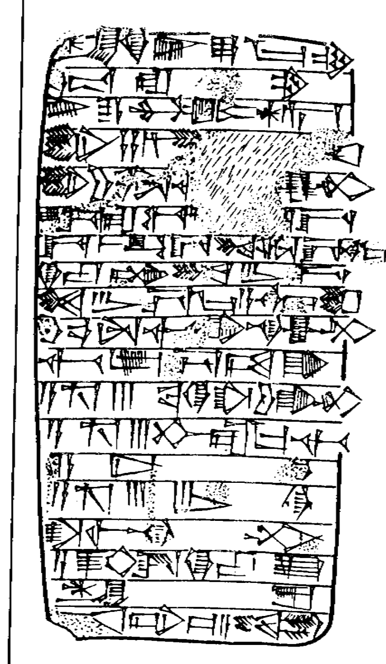
- (أَصْمِدُ ، أَصْمِدُكَ ، يلبّن - ينخص) وكلها أفعال مضارعة تدور في فلك الآكادية والعربية . .

أصمدُ : فعل مضارع مرفوع . أُصمِدُكَ : اتصل بالكاف التي هي ضمير المخاطب . . أما يلبّن وينخّص: فقد اتصلت بأحرف المضارعة، وتعود الى الغائب المفرد.

أما علامات الاعراب فهي متطابقة تماماً مع العربية ، لنأخذ الامثلة التالية :

- علْ أبنيم صلميم : جار ومجرور ومضاف إليه .

2 ـ انظر حواري معه ، صحيفة تشرين السورية بتاريخ 22/ 8/ 1986 .



رسم توضيحي للوجه الأول من الرقيم المسماري لأخذة كيش .

- علْ بابي إنليل أبي ايلي : جار ومجرور ومضاف إليه ، وبدل .
- لابنُم يلبنَّ لبتم = ظاهرة المفعول به المنصوب .
- أصمدُ لسانَم
- علْ زنبات : جمع مؤنث سالم .

أما ظاهرة المثنى : علْ بابيَ انليل ، فنلاحظ علامة التثنية ، وحذف النون للإضافة ، ونشير في هذا المجال ، ان ظاهرة المثنى انقرضت في اللغات «السامية» التي سادت في الألف الأول قبل الميلاد ، وانحصرت في كلمات معينة (في الأزواج) . أما في لغة إبــلا ، وفي لغتنا العربية ، وفي الآكادية في عهد (صارغون) فقد كانت هذه الظاهرة شائعة ، وهذا يقدم لنا أكبر دليل على قدم لغتنا العربية التي مازالت محتفظة بهذه الظاهرة إلى يومنا هذا .

وفي أدبيات إبــلا ما يشير إلى أن قواعدها ونحوها وصرفها يجب أن يدرس في لغتنا العربية لأنها هي الأقرب إلى لهجة إبــلا ، ليس من ناحية القواعد فقط ، كما مرّ معنا في نص «انشودة النجوم» وإنما أيضاً من حيث المعاني والدلالات المختلفة ، ولا اعتقد أن هناك - بشيء من الروية من لا يستطيع معرفة عبارة :

«عَلْ بابي انليل أبي ايلي»

المقصود بها على بابي انليل أبي الآلهة . . إننا حينما نسمع مفردات لغة إبــلا نحس بأننا نسمع لهجة عربية ، غير أن الصعوبة تكمن في المفردات السومرية التي كثر استخدامها في إبــلا مثل عبارة :

كروش (GURUŠ) وحجر (NAH) وفؤوس (GIŠAL) واماء (SIKIL) . وهذه العبارات تعرف بـ (اللوغوغرامات) . . . . إنها كانت معروفة لدى سكان إبــلا ، غير أنهم ركّبوها في تراكيب خاصة بالاسلوب الابلائي ، ولذا فإن من يريد التصدي لدراسة نصوص إبــلا ، فلا بدله من معرفة أسرار العربية وقواعدها ، وحينما تتوفر هذه العناصر ، تتوفر مفاتيح تفسير هذه اللغة التي اختلف العلماء في تصنيفها، وفي الأسرة التي تنتمي إليها[3] .

ومن المفيد أن نشير إلى قراءة مماثلة قام بها الدكتور البير فريد نقاش ، أستاذ اللغات القديمة في الجامعة اللبنانية - قسم الآثار ، لنص آكادي مماثل لانشودة النجوم الابلائية ، بعنوان «أُخْذَة كيش» تلك التعويذة التي كتبت لاستمالة قلب امرأة من كيش ، إلى رجل يحبها . . . .

لقد قام الدكتور البير بقراءة النص مباشرة من الآكادية إلى العربية دون الاستعانة بوساطة لغة أخرى ، كما يفعل علماء الغرب ، وقد توصل إلى النص التالي :

«حيا يرأم اَلْيرحَم[4]
اليرحم ابن عشتر قائم في المحراب
ببخور المرّ يتجلّى
البتولتان الحسنتان استشفعتا

أُخذة كيش ، من اقدم النصوص الأدبية في العالم (2300) ق.م. (الوجه الأول من الرقيم المسماري) .

3 ـ انظر فصل الكتابة واللغة الابلائية .

4 ـ كلام قدسي : استحضار اليرحم ، وهو كائن شبه إلهي ، لا ذكر له إلا في هذا النص .

وَرَدَتا الكرم وصَدَرتَا
في كرمٍ بخور المرّ طيبٍ ودَكَ[5]
أخَذتُ فاكِ ذا الرقّة ، أخَّذْتُ عينيكِ الزرقاوين ، أخَّذْتُ حِرَك ذا الثنية[6] .

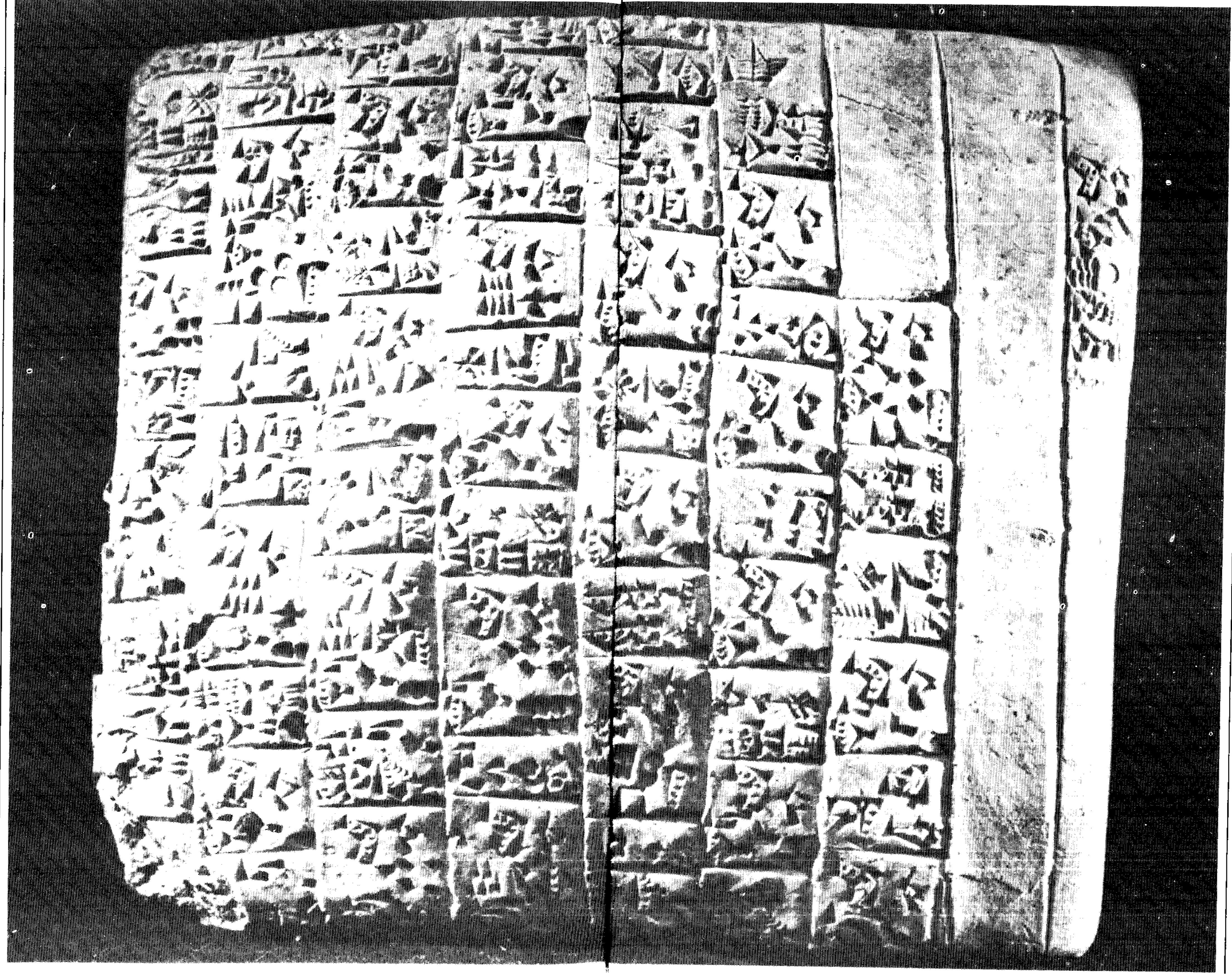
* * *

خَفَفْتُ إلى كرم (الاله) سين وقطعتُ من غَرَبَةِ الفُرات
تمجيداً ذكرتني مدَّةَ دهري ، يوماً بعد يومٍ .
كالرّاعي يطور الضأن ، والعنزة جديها ، والشاة حملها ،
والأتان مهرها .
هِبتَان يداهُ ، دهن وطيب شفتاه .
دهن الأرز اللائق في كفيه ، دهن الأرز اللائق في فَوْديه
زمزِم اليرحم عليها ثم فتنها[7] .
أَخَّذْتُ فاكِ الحبيبِ[8] .
أقسمت عليك بـ (الإلهة) عشترو (الإلهة) إشخر ،
ألا تتفسّحي قبلما زَوْرُهُ وزورُك يَعتَمِدان»[9] .

من المرجح أن يكون كاتب النص أحد كهنة الإله (حَيا) ولكن هذا لا يعني أن النص نجوى ذاتية أو خبر عن الكاهن ، فالكلام فيه لا يجري على نسق واحد ، بل ينطوي على تنوع والتفات من الخبر إلى الخطاب ، إلى الوصف الحسي .... بإسلوب أدبي بادي الزخرفة ، بيّن الإيقاع[10] .... ويأخذ هذا النص قيمته من مقارنته مع «أنشودة النجوم» الابلائية المعاصرة ، وهذه إشارة أخرى إلى وحدة الجوهر اللغوي بين اللسان العربي والآكادي والابلائي .

5 ـ حث الرجل على استعطاف اليرحم .
6 ـ تأخيذ جسد المرأة .
7 ـ وصف اليرحم ودعوته إلى الاستيلاء عليها .
8 ـ تأخيذ فتنة فم المرأة .
9 ـ الدعاء عليها بالانقباض .
10 ـ أخذة كيش ، تقديم وتحقيق البير فريد النقاش ، حسني زينة ، منشورات شركة المطبوعات والتوزيع والنشر ـ بيروت 1989. (ص 47 ـ 49) .





رقيم مسماري من إبـــلا عليه كتابة يعود تاريخها الى الألف الثالث قبل الميلاد.

إبــــلا كتابـــة ولغـــة

7

إبلا كتابة ولغة

لا نجافي الحقيقة اذا قلنا ان مشرقنا العربي القديم، كان مهد الحضارات الانسانية الاولى، وتعتبر الكتابة اعظم نتاج حضاري قدمه ابناء هذه المنطقة الى البشرية، وقد قدمت لنا الكثير من المواقع الاثرية في بلاد الشام وبلاد مابين النهرين، ما يشير الى ظهور هذه الكتابة (المسمارية) في آواخر الالف الرابع، وأوائل الالف الثالث قبل الميلاد، وكان الشعب السومري هو الذي اوجدها، وله الفضل في انشاء حضارة تعد من الحضارات الاولى التي عرفها الانسان في تاريخه القديم.[1]

كانت الواح الطين (الرقم) تشكل مادة الكتابة الرئيسية عبر التاريخ الطويل الذي عرفته الكتابات المسمارية، إذ استمر وجودها حتى عام 50 بعد الميلاد، فكانت تطبع عليها العلامات المسمارية، وهي لا تزال طرية، ثم تعرض للحرارة، او تشوى، حتى تجف وتصلب ويصعب تهشيمها. . . . وكان القلم الذي استعمل في طبع الاشارات المسمارية في بداية ظهورها مصنوعاً من الخشب، وذا رأس مثلث الشكل، دقيق المقدمة، ثم اصبح بعد ذلك غليظاً، بعض الشيء، واستمر كذلك حتى اختفاء الخط كله، ولما كانت الاشكال التي تظهر على الرقم تعكس شكل القلم المستعمل ذي الرأس المثلث، فتبدو كالمسامير، حتى في بداية الكتابة عندما كانت تصويرية، فان هذا الشكل هو الذي اكسب اسم «الكتابة المسمارية» او «الاسفينية» في العربية.

كانت البدايات الاولى للكتابة السومرية تصويرية، تعبر عن الاشياء، بصور تعكس شلكها الحقيقي، الا ان عدد تلك الصور لم يكن كبيراً، لانها جعلت للاشياء التي يندر استخدامها، مثل صورة الاسد، وانثى الابل والماعز الجبلي. كما كانت تضم عدداً كبيراً من الصور المقتضبة التي تمثل الشيء الحقيقي باختصار ووضوح كاف، كأن ترسم رأس الحيوان لتدل عليه عوضاً عن رسم هيئة الحيوان بكامله.

ومن ثم ظهرت الرسوم التي بدأت تبتعد تدريجياً عن الصورة الاصلية فاصبحت الاشكال تبدو ابسط تكويناً، وتفقد صلتها الواضحة بالشكل الاولي المتقن، حتى اصبحت اشارات وعلامات، بل رموزاً، يدل كل واحد منها على صوت محدد، او اصوات قريبة من بعضها، وسبب ذلك كله يرجع الى استخدام القلم ذي الرأس المثلث الغليظ، الذي ما عاد يسمح برسم الخطوط المنحنية التي تشكل منها الكلمة (الصورة) فاضطر الكاتب الى رسم زاوية محل الخط المنحني بما تيسر من اشكال مسمارية، ومن ثم بدأ يقلل من هذه الاشكال المعقدة، وكانت النتيجة ان ضاع الشبه بين هذه الاشكال المتأخرة وبين الصورة الاصلية، وهذا تطور بديهي.[2]

1 - ان البت في هذا الموضوع الهام، لم يزل موضوع جدل كبير بين علماء اللغات القديمة، فثمة من يعتقد ان السومريين اخذوا ايضا من الرافديين قبلهم.

2 - الابجدية، نشأة الكتابة وتطورها عند الشعوب، د. احمد هبو (ص34 - 35).

لقد انتشر الخط المسماري على ايدي الاكاديين، الذين تسلموا الحكم زمن ملكهم (صارغون) في عام 2350 قبل الميلاد في جميع مناطق بلاد مابين النهرين، وانتقل الى عيلام والى بلاد الشام، فكتب به الحوريون والحثيون في آسيا الصغرى، كما كتب به المصريون مراسلاتهم مع ملوك المشرق العربي القديم في القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد باللغة البابلية والخط المسماري، واستخدمه الاخمينيون (الفرس) ايضا، وتأثر الاوغاريتيون بشكله رغم اختلاف كتابتهم من حيث المبدأ معه، ثم ما لبث ان تقلصت رقعة المناطق التي كانت تكتب به اثر سقوط (نينوى) عاصمة الآشوريين في عام 612 قبل الميلاد، واستمر في بابل الى نهاية العهد السلوقي، اما تاريخ اخر كتابة مسمارية فيعود الى منتصف القرن الاول الميلادي، ولاشك ان سبب انحسار الرقعة التي كانت مسرحاً للكتابات المسمارية اولاً، ومن ثم اندحارها وانقراضها هو ظهور الكتابات الابجدية في منطقة المشرق القديم، وانتشارها السريع بين الشعوب المجاورة لسهولة كتابتها، وقلة عدد علاماتها، وميل الناس الى استعمال الكتابة في اغراض مختلفة ومتعددة، غير الاغراض التقليدية القديمة ذات الصلة بالاقتصاد وامور الحرب والدين.[3]

ان المتتبع لمسيرة الكتابة المسمارية، يرى انها كانت في البداية تصويرية رمزية، ثم اصبحت صوتية، وفي غالب الاحيان لم يعد فيها علاقة بين الصورة والصوت . . . فاشارة اليد كانت في الاصل ليد الانسان، ولا تعني الا اليد، وعندما اصبح لها قيمة صوتية (شو) لان (يد) تسمى (شو) لدى السومريين، واصبحت هذه الاشارة تستخدم لتسجل صوتياً لكل كلمة فيها المقطع (شو)، وثمة ملاحظة يوردها الدكتور عدنان البني[4] فيقول : «بصدد موضوع الكتابة المسمارية فان اشارات الكتابة محدودة العدد، اما الافكار فلا تقع تحت حصر، ولابد من التعبير باشارة واحدة عن كل الافكار القريبة من معناها الاصلي، فشكل القرص لا يعني الشمس فحسب، بل فكرة النهار وفكرة الضياء وفكرة البياض . . . ولما كان كل من هذه الافكار له اسم مختلف، فان إشارة القرص الاصلية قد اصبح لها قيم صوتية جديدة . . . ومن هنا فان اشارات الكتابة المسمارية يمكن ان تعبر عن اصوات عدة تصل احياناً الى خمسة عشر او عشرين. وبالمقابل فان لفظة واحدة تعطي في لغة من اللغات معنيين او عدة معان، وفي الكتابة رمزية كالمسمارية السومرية نجد المعاني المشتركة لفظياً لابد ان يكون لكل منها اشارة خاصة وبالتالي، فان العديد من الاشارات تدل على لفظ واحد . . . ولما كانت الكتابة المسمارية وضعت اصلاً لتسجيل لغة مدغمة ملصقة او مدغمة كالسومرية، وهذا يلائمها، فلما اقتصرت على الامور الدينية، وحلت محلها اللغة الآكادية في بلاد مابين النهرين، وبلاد الشام، وماجاورهما، وكتبت الآكادية بالمسمارية السومرية، حصلت صعوبات جديدة في الكتابة المسمارية، لان الكتابة السومرية، بالاصل غير مؤهلة تماما للتعبير عنها، فالآكادية كالعربية بعض حروفها لها حالات في اللفظ (كالتاء والطاء والثاء والصاد والظاء والسين والشين) ولاتفرق الاشارات المسمارية بينها.

في هذا الصدد يقول «بول غاريللي» : ازاء هذه الطريقة المعقدة في الكتابة كان لابد للباحثين الاوائل من ان يضلوا سواء السبيل، وما ان يتوصلوا الى معرفة قيمة او لفظ اشارة من الاشارات في احد الاسماء، حتى يتضح لهم ان هذه الاشارة تقرأ بشكل مغاير من اسم آخر، الامر الذي لابد ان يزرع الشك بالنسبة لقراءة الاسم الاول.[5]

3 - المصدر السابق (ص 39).

4 - مجلة التراث العربي، السنة الثانية، العدد الرابع - اذار 1981، (ص 24).

5 - المصدر السابق (ص 26 - 25).

رُقيم مسماري من مكتشفات أرشيف القصر الملكي العائد الى فترة الازدهار الاولى في الألف الثالث قبل الميلاد .

ونشير الى حقيقة مفادها ان بعض الباحثين، يقومون بترجمة هذه الكتابات وفي اذهانهم التعرف على احداث التوراة من خلال هذه المدونات القديمة، ومحاولة مطابقة هذه القراءات مع ماجاء في التوراة، فيحملون النص اكثر مما يتضمن، وهذا ماحدث مع «بتيناتو» وقبله مع «فيرولو» وغيرهما، كما ان بعض هؤلاء لا يجيدون قراءة اللغة العربية، الابنة الشرعية لكل اللغات «اللهجات» القديمة، فيقعون في شرك تشويهات الترجمة الاجنبية، وقد ثبت بما لا يقبل الشك الصلة الوثيقة، والتقارب الحميم بين لغتنا الحالية (لهجتنا) ولغاتنا القديمة، وان اللغة العربية بصورتها الحالية كافية لاستيعاب كل نصوص المدونات القديمة، دون مخافة التشويش او التشوية.[6]

وهنا نصل الى لب المشكلة . . . مشكلة اختلاط الاوراق في القراءات الاولية لرقم إبــلا، والتأويلات الخاطئة التي تلاشت الآن بعد ان بينت الدراسات المستجدة، ان هذه اللغة التي دونت بها هذه المحفوظات الهامة النادرة، ماهي الا لهجة آكادية قديمة، مازالت تحتفظ بأهم سمات لغتنا الام . . .

ان الكتابة المسمارية المكتشفة في إبــلا، سجلت اسطرها وفق المنحى العمودي، أي أن مقاطعها وكلماتها تتوالى من الاعلى الى الاسفل على غرار الكتابات اليابانية والصينية. اما من حيث

6 - انظر حواري مع الدكتور البير فريد نقاش حول قراءاته لنصوص تراثنا القديم، صحيفة تشرين السورية 1989/5/18 (ص 3).

توالي الاسطر نفسها فهي تتوالى من اليسار نحو اليمين، وهذا يعني ان الكتابة الابلائية المسطورة على احد التماثيل او النصب او الالواح، انما تقرأ ابتداء من الطرف الايسر المقابل للعين اليسرى، ومن الزاوية العليا نزولاً في قراءة المقاطع شاقولياً، ثم البدء بقراءة السطر العمودي التالي من جهة اليسار ايضاً بما يحاذي السطر الاول، وقد تتم قراءة الاسطر، كما كتبت في هذه الكتابة وزمرتها المسمارية ولاسيما السومرية، وفق الخطوط المنكسرة التي تتوالى من الاعلى الى الاسفل، فالى الاعلى فالاسفل دون انقطاع، وفي وضع شاقولي، وفق اشعة البرق او (زيك ـ زاك) .[7] وهذه الكتابة التي اطلق عليها اصطلاحاً (الابلائية)نرى انها قد دونت وفق ماكانت عليه سائر كتابات المشرق العربي القديم، في الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد باستثناء الكتابة المصرية القديمة (الهيروغليفية التي اعتمدت الطريقة التصويرية، اي الرمز للمعاني بوساطة صور هيئاتها) .[8]

ويشير باولوماتييه بهذا الخصوص :[9] ان كافة النصوص الوثائقية المكتشفة في (G)في تل مرديخ، قابلة للتأريخ بين 2400 - 2250 قبل الميلاد، وباستثناء المفردات السومرية فان كافة النصوص مكتوبة باقدم لغة سامية (شمالية غربية). ونحن نطلق على هذه اللغة اسم اللغة الابلائية، تبعاً لمدينة إبــلا التي وجدنا فيها الوثائق نفسها، هذا وكانت اللغة الابلائية تستخدم الاشارات السومرية في مجالات واسعة، كما هي الحال في اللغة الآكادية القديمة، ومن المؤكد ان اللغة الابلائية كانت لغة البلاط الملكي في إبــلا 2400 قبل الميلاد ولكن هذا لا يعني انها قد ولدت في 2400 قبل الميلاد بل لابد انها تركت ماضياً من التراث الادبي اقدم من هذا التاريخ بكثير .

• لغة إبلا:

ولكن ماذا عن لغة إبــلا ؟! بعد مرور اكثر من عشر سنوات على الضجة الاعلامية التي اثيرت حولها، ومحاولة بعض الاقلام المأجورة تسخيرها لخدمة اغراضها الدنيئة. . . .

بداية نشير الى ان لغة إبــلا لم تكن واضحة لدى اكثر العلماء الذين اطلعوا على رقمها الكتابية، فجعلها «جيوفاني بتيناتو» وبعض العلماء في عداد زمرة اللغات الشمالية الغربية، تبعاً لموقع إبــلا الجغرافي، مع الاعتراف بان هذه اللغة جديدة على قراءاتهم، اذ لم يسبق لرقم اخرى اكتشفت في منطقة المشرق العربي القديم ان تضمنتها، وفي البداية قام «بتيناتو» بوصف هذه اللغة بـ«الكنعانية القديمة» ثم اقترح ان تنسب الى إبــلا نفسها وان تسمى منذ اليوم بـ«اللغة الابلائية» وهذه اللغة او اللهجة الكنعانية تنتمي الى الارومة «السامية» وفق التصنيف اللغوي التقليدي لمجموعة لغات المشرق القديم عامة.

وهناك من اكد على خصائص لغة إبــلا المشتركة مع اللغة الآكادية التي تكلم بها الآكاديون في منطقة بلاد مابين النهرين قبل اليوم، بنحو خمسة آلاف سنة، ومما تجدر ملاحظته ان هذه اللغة الابلائية (الكنعانية الداخلية) سبقت في ظهورها تلك اللغة الفينيقية (الكنعانية الساحلية بما يقارب الف سنة. . .[10]

ولكن ما ان تعمق بها الدارسون حتى وجدوا انها اقدم لغة عربية، فهي مشابهة للاكادية التي ظهرت أولاً في عهد صارغون الأكادي، ثم هي اصل الكنعانية، ولكنها اقدم من الاولى بجيلين،

7 ـ إبــلا، منعطف التاريخ، د. عمر الدقاق، نقلاً عن بحث مترجم لباولو ماتييه (ص 51).

8 ـ المصدر السابق (ص 52).

9 ـ إبــلا، اقدم مملكة عامرة، في سورية، ترجمة : قاسم طوير (ص 20).

10 ـ إبــلا، منعطف التاريخ، مصدر سابق (ص 43 - 44).

وهذه اللغات هي لهجات متنوعة للغة واحدة، او لاسرة من اللهجات، اطلق عليها خطأ اسم «الاسرة السامية». . . وقد اصبح من المفضل ان يطلق عليها اسم (الاسرة اللغوية العربية) ذلك ان مفهوم السامية متناقض في التوراة، بعيد عن العلم والاثبات في التاريخ، اما كلمة (عرب) فهي تعني سكان هذه المنطقة الذين كانوا يتكلمون هذه اللهجات المختلفة، و تربطهم طبيعة واحدة، وحضارات متشابهة معاصرة لبعضها، ويتفاعلون مع بعضهم باستمرار عن طريق التجارة والهجرة والحروب .[11]

حول هذا الموضوع، يقول الدكتور عفيف بهنسي :[12] ان العلاقة بين اللغة القديمة (الآكادية ـ الابلائية ـ الكنعانية) وبين اللغة العربية ظاهرة وواضحة، بل انه من الخطأ ان ننطق الالفاظ القديمة بحسب نطقها العبراني، ولذلك لان اللغة العبرانية خليط، اما اللغة العربية فهي صرفة والالفاظ الدخيلة فيها معروفة بوضوح.

ويوضح المشكلة التي تنشأ عن عدم الاعتماد على اللغة العربية بالامور التالية:

1 ـ عدم العثور على كثير من معاني الالفاظ القديمة، او سوء ترجمتها.

2 ـ عدم التمكن من نطقها جيداً، نظراً لان اكثر الحروف غير مشترك مع اللاتينية والعبرية، بل هو مشترك بوضوح مع العربية مثل (ق ـ غ ـ ع). وقد عرض العالم الآثاري بيلو فرانزا رولي،[13] فقال :

ثمة صعوبات نواجهها في دراسة لغة إبــلا، ففي غالب الاحيان نجد طريقة الكتابة في الالف الثالث قبل الميلاد، تتيح المجال لقراءة مزدوجة للكلمة الواحدة، اذ يمكن أن تقرأ الكلمة هكذا وهكذا. . . لكن الصعوبة الكبيرة تظهر لدى محاولتنا معرفة دلالة الكلمات، فاذا اخذنا على سبيل المثال الاسم (ايبلول ـ ايل) الذي يظهر في نصوص إبــلا ايضا على اساس انه اسم لأحد ملوك ماري .

نجد ان الاستاذ جيلب يرى في كلمة (ايبلول) مشتقة من كلمة (بالالوم) ومعناها (يصب ـ يسكب)، بينما يرى الاستاذ روبرتس ـ ان الكلمة تعني (خلط ـ مزج). اما الاستاذ «ادزارد» فيقرأها (يبلول) ويترجمها الى (سبق ـ تقدم).

ومع ضرورة الاشارة الى تزامن اللغة الابلائية مع الآكادية ومع الآمورية، غير ان فرانزارولي يؤكد ان بعض الاسماء الابلائية ليس لها مثيل للمقارنة في الآكادية والآمورية، وان بعض الاسماء والمفردات الابلائية لا تزال حية ـ حتى الآن ـ في اللغة العربية، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على ان الوحدة بين اللغة الابلائية، واللغة العربية الحديثة مازالت قائمة، على الرغم من مرور ما يقارب خمسة آلاف سنة .

ويعرض لنا فرانزارولي قائمة كبيرة بهذه المفردات الحية، نورد بعضاً منها نظراً لاهميتها :

شرشوم : (شرش) ـ (خيرتوم : (الاخير) ـ نصاروم (ناظر)، بيتوم : (بيت) ـ تهاماتوم : (تهامة ـ بحر) ـ ملكتوم : (ملكة) ملكوم (ملك) ـ موليتوم : (مولدة ـ قابلة) كوكاباتوم : (كوكب) ـ

11 ـ مجلة الفكر العربي، العدد الثاني والخمسون آب السنة التاسعة (ص 92 - 93).

12 ـ وثائق إبــلا، (ص 142).

13 ـ استاذ اللغات السامية في جامعة فلورنسا، عضو الهيئة الدولية لدراسة نصوص إبــلا.